

الحركات العربية - دراسة وصفية تطبيقية-

تقديم أ : فوزية سرير عبد الله
أستاذة مساعدة بجامعة سعد دحلب البليدة

تفنيدا للفكرة التي الشائعة حول دراسة علماء الأصوات العرب للصوائت و التي يذهب فيها أصحابها إلى القول بأنّ قدامى العربية لم يضعوا حدودا فاصلة بين صنفى الأصوات الصامتة و الصائتة، وهو ما جعلهم يصبّون اهتمامهم على النوع الأول و يهملون الثاني نقدم هذه المداخلة المتواضعة تحت عنوان:

الحركات أبعاض حروف المد و اللين
- دراسة وصفية تطبيقية-

الفونيمات نوعان : رئيسية وهي التي اصطلح علماء الأصوات على تسميتها الفونيمات التركيبية ، وفونيمات ثانوية ، أي فوق تركيبية ، والنوع الأول هو الذي يلعب دورا رئيسيا في تشكيل بنية اللغة، وهو الآخر ينقسم إلى أصوات ساكنة (صامتة) وأصوات مدية (صائتة) وما هذه المداخلة إلا دراسة وصفية تطبيقية للقسم الثاني من الفونيمات التركيبية (أي الأصوات المد) في العربية ، فما هي هذه الأصوات؟ وماهي أنواعها؟ وكيف يتم انتاجها ؟

التسمية:

أطلق علماء الأصوات قديمهم ومحدثهم على نوع خاص من الأصوات مصطلحات عديدة وكلها تؤول إلى مفهوم واحد، منها: الحروف الهوائية، والحروف الجوف⁽¹⁾ حروف المدّ واللين، الحروف الساكنة، حروف العلة (عند القدامى) والأصوات الساكنة، والأصوات المدية، والأصوات الطليقة والأصوات الصائتة ، والطلاقات⁽²⁾ والأصوات المتحركة. عدها: يبلغ عددها اثنان باعتبار النوع إذ تنقسم إلى أصوات طويلة هي الألف والياء والواو، وقصيرة هي الفتحة والكسرة والضمة. الألف: حرف مدّ عند النطق به يجد الهواء منفذا له، ولا يجابه لابضغط ولا بحصر، إذ يكون الحلق والفم مفتحين كلياً. الياء: تتدخل عناصر أخرى في إصدار هذا الصوت إذ تضغط الأضراس السفلية والعلوية جنبتي اللسان ويبتعد الحنك عن ظهر اللسان . الواو: تضم لها معظم الشفتين، وتترك بينها بعض الانفراج ليخرج النفس ويتصل الصوت. يقول عنها " حسن عباس " أنها يشير بالبعد إلى الأمام.⁽³⁾ لكن يشترط في هذه الأصوات لكي تكون مدية أن تكون ساكنة وقبلها حركة من جنسها (مجانسة لها) فالألف: لا يكون ما قبلها إلا مفتوحا نحو: قال، أما الواو الساكنة: لا يكون إلا مضموم نحو: يقول، أما الياء الساكنة فيجب أن يكون ما قبلها مكسورا نحو قيل. وتسمى هذه أصوات مدولين " لامتداد الصوت بها " . وعدم انتهائه في نقطة معينة (أي في مدرجة من مدارج الحلق والفم والشففتين)⁽⁴⁾ عند النطق بها. بل يمتدّ الصوت ولا ينتهي امتداده إلا بانتهاء الهواء الخارج من الرئتين، كمثال امتداد الصوت في الناي بدون أعمال الأصابع على فتحاته، أو كجريان الصوت في الوتر غفلا من غير حصر⁽⁵⁾ .

ننبه إلى أن صفة الامتداد تختلف عن صفة الاستطالة التي تميز صوت الضاد العربية " فالمستطيل مخرجه محق فجرى الصوت فيه بقدر طول مخرجه ولم يتجاوزه، فزمنه مساو لمخرجه، ولكن الممدود ليس له مخرج محقق فلم يجر إلا في ذاته، وينقطع بانقطاع النفس أو إراديا ، وليس لانتهاه المخرج، ولذلك كان زمنه أطول من المستطيل " (6) يقابل هذه الأصوات المدية الثلاثة ثلاثة من جنسها لكنها قصيرة هي الفتحة والكسرة والضمة ، اشتهرت بمصطلح الحركات " (7) والحركات جمع حركة التي هي في اللغة ضدّ السكون أي انتقال لجسم من مكان إلى مكان آخر أو انتقال أجزاء منه " (8) ، وهي تعبّر عن تقليد راسخ الجذور في الدرس اللغوي العربي، لأنها السبب الذي قام من أجله الدرس النحوي بعد أن كاد اللحن يسري إلى هذه اللغة ، والمتفق عليه أنّ الخطر من الناحية الإعرابية أكثر من غيرها . فكان الدواء الذي عولجت به هذه العلة هو أحكام ضبط هذه الحركات الثلاثة مع أبي الأسود (9) ، وهكذا كانت الحركة أولى الأفكار التي توصل إليها العرب في بداية التفكير الجدي لدراسة اللغة العربية.

أما عن سبب اختيار مصطلح " الحركة " للدلالة على هذا المفهوم فقد استنتج أحد الباحثين المحدثين من قول (ابن جني) : " الحركة تقلق الحرف عن موضعه " (10) وصرّح أنها سميت حركات لأنها تؤثر على الحرف فتزيحه من موضعه ومستقره،

وكان الحركة بدخولها على الحرف تثقله فتحركه إلى جهة مخرجها فإذا كان لحرف ساكنا و حركته بالفتح جذبته الفتحة نحو الألف، وإذا حركته بالكسر جذبته الكسرة نحو الياء، وإذا حركته بالضم جذبته الضمة نحو الواو، فلما فعلت تلك الأصوات الناقصة بالحرف ذلك سميت حركات " (11) .

وكلا النوعين اللذين ذكرنا يصنّف ضمن الأصوات الصائتة ، ويعرف بأصوات المدّ لكن للتفريق بينهما تضاف قرينة (قصيرة) للدلالة على الفتحة والكسرة والضمة ، وقرينة (طويلة) للدلالة على الألف والياء والواو .

كيفية حدوثها:

تحدث الأصوات الصائتة vowels عندما ينطلق الهواء معها انطلاقا تاما بحيث لا يعوقهفي أية منطقة من مناطق النطق، وهذا خاص بحروف المدّ والحركات القصيرة " (12) هنا نتساءل : إذا كانت هذه الأصوات كلّها تنتج عن عدم وجود اعتراض للهواء في أية نقطة من جهاز النطق، من الحلق إلى الشفتين: فكيف تتميز عن بعضها بعضا ؟.

الإجابة عن هذا السؤال هي: إنّ هذا النوع من الأصوات يخرج بامتداد الصوت في مخرجها والتمثل في الجوف (أول المخارج الرئيسية) مع اهتزاز الأوتار الصوتية التي تنتج الصوت عند ملاقة الهواء الخارج من الرئتين، فأوسع الأصوات مخرجا هو الألف، فعند النطق بهيجد الهواء منفذا له، ولا يجابهه لا بضغط، و لا بحصر، ويكون الحلق والفم مفتحين كلياً " (13).

وذلك انجاز هذا الصوت دون غيره من الأصوات يليه من حيث درجة انفتاح المخرج الياء الساكنة، وذلك لتدخل عناصر أخرى في إصدار هذا الصوت الذي ينجز عن طريق ضغط الأضراس السفلية والعلوية لجنبي اللسان ، وهذا الفعل ينجرّ عنه إبعاد الحنك عن ظهر اللسان، ومن خلال وضع هذه الأعضاء يمرّ الصوت متصعدا من أسفل إلى أعلى وهكذا يسمع صوت الياء ولإنتاج الواو فما عليك إلّا ضمّ معظم الشفتين، فيخرج النفس من خلال بعض الانفراج الذي تتركه بين الشفتين .

ومن هنا تتبين أن اختلاف أعداد الأصوات وتباينها عن اختلاف أوضاع الأعضاء الفاعلة والمتدخلة في العملية في مقدمتها اللسان والشفتان (14) مع الأخذ في الاعتبار كمية الهواء المتسرّب

فعند النطق بكلمات نحو: هؤلاء ، سيئت ، سواء ، يحدث اهتزاز لأوتار الصوتية مع انضمام الشفتين عند الواو وانخفاض الفك السفلي مع الياء و انفتاح ما بين الفكين عند الألف (15) فعدم فتح الفم مع الألف فتحا تاما أو ضم الشفتين مع الواو و كسر الفك السفلي مع الياء يعد خطأ شائعا في

قراءة القرآن، وبالنسبة للحركات أيضا ينبغي على القارئ أن يحفظ مقادير الحركات والسكنات، فلا يشبع الفتحة بحيث تصير ألفا ولا الضمة فتخرج واوا ولا الكسرة فتكون ياء ، ولا يوهنها ويبالغ فيضعف الصوت عن أدائها فتتحول سكونا، فالناطق يمكن أن يبدأ من السكون حتى ينتهي إلى حرف مدّ، ويستطيع أن يبدأ بحرف المدّ حتى ينتهي إلى السكون . (16)

وهكذا فإن الصفات الأساسية الجامعة لأصوات المدّ قصيرها وطولها هي : عدم وجود عائق واهتزاز الأوتار الصوتية الذي ينجم عنه الجهر (علما أن عدم الاهتزاز لا ينتج صوتا، وإنما يكون عبارة عن زفير) وكذا الوضوح السمعي مع التأكيد على أن القصيرة أقلّ وضوحا في الإسماع من الطويلة.

بعدما بيّنا أن صنفَي الأصوات المدّية على اختلافها قصيرة وطويلة ينتج بكيفية واحدة فهذا يعني أنهما من صنف واحد، لكن هل من أدلة تثبت هذا ؟.

إنّ المتصح للموروث القديم يجد بعض قدمائنا قد تناول هذه الفكرة في مقدمتهم (ابن جني) في المسألة التي عنوانها ب : الحركات أبعاد حروف المدّ واللين (17) .

ومن تعريفنا السابق للحركة ينتج لنا بأن مقصود (ابن جني) بقوله أبعاد حروف المدّ واللين أن هذه الحركات عبارة عن انتقال للحروف يصعب علينا تحديد مداه انطلاقا من هذه العلاقة المتوهمة بين الحركة والحرف، علاقة اجتهد (ابن جني) في عرض الأدلة المثبتة لها حتى يكون منها نظرية خلاصة به .

فمتقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف القصيرة ، والكسرة والياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة (18) ، فالتسمية مثلما نلاحظ مبنية على أساس وجود علاقة (أصغر من) لكن يبدو أنّ هذه التسمية لم تقنعه ، فنراه ينقب عن الأدلة المثبتة لأرائه فحصل على ثلاث حجج تزيد الأمر وضوحا وبيانا تمثلت في:

أولاً: أن عدد الحركات، فتحة وكسرة وضمة مساو لحروف المدّ ، ألف وياء و واو يبنى بوجود تماثل بين هذين النوعين لا محالة .

ثانياً: أن كل واحدة من هذه الحروف تنشأ بإشباع الحركة التي هي من جنسها .

ثالثاً : تدور الحجة الأخيرة حول إمكانية (إطالة) مطل حروف المد نفسها كما ان الحروف نفسها قد تجد بعضها أتم صوتا من بعض (وإن كانت كلها حروفا يقع بعضها موقع بعض) (19) في غالب الأمر . وإذا تسنى لنا هذا فانه يجب علينا الموافقة على أنّ هذه الأخيرة يمكن لها أن تتعرض لعكس عملية المطل (أي الاختزال) فتصبح حركة. و من خلال العلاقة المستنتجة بين حروف المدّ و الحركات، و التي يبدو أنّها تعاني نقصا جوهريا بالنسبة إلى الحروف التوام الكوامل نتوصل إلى أنّ الحركة جزء من حرف المد التّم الكامل (20) إذن فالحركة المدية ليست إلا حركة طويلة، والحركة الطويلة ماهي إلا انتقال لحرف مدّ قصير، "فكلما رسخ الحرف في المد كان حينئذ محفوظا بتمامه، وتمادى الصوت به، و ذلك الألف ثم الياء ثم الواو" (21) .

فالحركة و حرف المد من مادة واح دة، ولهذا فهما مشتركان في الخصائص ، و المميزات، إذ أنّ " الحركة في حقيقتها لا يمكن أن تكون لها سمات مفهومة تميّزها عن هذا الشيء الآخر، و هكذا تبدو لنا في ضوء هذا الفهم استحالة أن تصبح الحركة كائنا آخر أي أن تصبح مستقلة، و هذا الكلام مأخوذ من منطق الإثبات لدى ابن جني و لكنه لم يستخرجه بنفسه" (22) .

و للكشف عن علاقة التدرج المنتقلة من الجزء إلى الكلّ (علاقة الحركات بحروف المدّ و اللين) أو علاقة الكلّ بالجزء (حروف المدّ و اللين بالحركات) يقارن (ابن جني) بين أوضاع مختلفة لحروف المدّ التي تكون وهي حروف مدّ أطول أحيانا ممّا هي عليه و ذلك إذا كانت:

أ/ قبل همزة، مثل: يشاء، و يداء، و يسوء، و يهوء، و يجيئ، و يفئ.

ب/ أو مصوّت مضعّف، مثل شابة، و دابة، يطيب بّكر، و يسير رّاشد، و تمود الثّوب...

ألا ترى أنّ حروف المدّ في المجموعة الثانية أطول من أمثلة المجموعة الأولى،

و في كلا الموضعين هي حروف مدّ تامة كاملة، و هي أطول منها في قولك: يخاف، و ينام، و يسير، و يقوم، و يسوم⁽²³⁾ ... و هكذا نلاحظ أنّ هذه الحروف الثلاثة أين وقعت و كيف وجدت سواكن من غير إدغام فيها امتداد و لين.. "إلا أنّ الأماكن التي يطول فيها صوتها و تتمكن مدتها: ثلاثة، وهي: أن يقع بعدها، وهي سواكن توابع لما (هو منهنّ) و هو الحركات من جنسهنّ، الهمزة، أو الحرف المشدّد، أو أن يتوقف عليها عند التذكّر⁽²⁴⁾ .

و من الأمثلة التي تمطل فيها الحركات عند التذكّر والتي استدلت بها (ابن جني) قول القائل: "قالا" أي قال زيد، و "أينما" أي: أين أنت؟ و إنما جعلت الاستطالة بالألف للتدليل على أنّ الكلام ناقص، من مثل قولك: "أخوك ضربا" إن كنت متذكرا للمفعول به، أو نحو ذلك أي ضربا زيدا و نحوه، و كذلك مطل الواو إذا تذكرت في نحو ضربوا يوم الجمعة، أو ضربوا فتتذكر الحال. وكذلك الياء في نحو اضربي أي اضربي زيدا نحو⁽²⁵⁾ .

و هكذا لا يكون المطل في حالة التذكّر مقتصرًا على أصوات المدّ وحدها، هذه الأخيرة التي رأينا أنّها تكون في بعض الأحيان أطول أو أقصر ممّا هو متعارف عليه، فإنك لا تجد هذه الحروف لدنات و لا ناعمات، و لا وافيّات مستطيلات، كما تجدهنّ كذلك إذا تلاهنّ الهمز أو الحرف المشدّد⁽²⁶⁾ أو توقف عليهن عند التذكّر. و بالرغم من هذا الاختلاف في الطول، إلا أنّ هذه الحروف تبقى في مختلف الحالات حروف مدّ لا شيئًا آخر.

و بعد هذه الاستدلالات التي تكشف عن الفكرة العامة المتمثلة في النقص الجوهرى للحركات تلك التي لا توجد بذاتها فهي تحدث مع الحروف، و اعتمادا على هذا يمكننا القول أنّ حرف المد لا يحدث إلا عن حركة متمكّنة ممتدّة و مستطيلة، فهذه الأخيرة ما هي إلا جزء من حرف مدّ من جنسها، و لسوف نزيد من إثبات هذه الفكرة بتقديم برهان آخر، يتمثل في دليل الإشباع.

و تتلخص الفكرة في أنّه بإشباع الحركات الثلاث ينشأ الحرف الذي هي بعضه، و هذا فيه من الدلالة على أنّ هذه الحركات أبعاض لهذه الحروف" و إذا فعلت العرب أنشأت عن الحركة الحرف من جنسها، فتتثنى بعد الفتحة الألف، و بعد الكسرة الياء، و بعد الضمة واو⁽²⁷⁾ .

نفهم بأنّها الإشباع نمو نمو يُوّدي بالحركة التي هي حرف ناقص التمام و الكمال، أي حرف المدّ، و هكذا فإنّ الحرف التام هو ما زاد على الحركة بالإشباع، فالحركة زائد إضافة تعطينا حرفا تاما، أي أنّه في الأول يكون لدينا الحركة و تحت تأثير الإشباع تنمو فيتولد منها حرف مدّ من جنسها، "فالحركة جزء من الحرف التام، و هذا الجزء الذي يمثل الحركة يحتل المكان الأول في حرف المدّ"⁽²⁸⁾، و فكرة الإشباع يستعملها النحاة العرب إشارة إلى نوع من التكبير، وإشعارا ببعض ما يبدو أكثر قوة أو تواترا من الأحداث اللغوية، وهذا ما أثبتته صاحب اللسان، و من جهة أخرى نجدهم أطلقوا في العروض، على حركة الحرف المسمى بالدخيل "إشباعا" .

و ربما لجأت العرب إلى إشباع الحركة إن احتاجت لإقامة الوزن إلى حرف مجتلب ليس من لفظ البيت فينشأ عنها الحرف الذي هي بعضه ، و هذه الزيادة ليست مصوغة في تلك الكلم، إنّما زيدت لمعان حدثت و أغراض أريدت.

فمن أمثلة إشباع الفتحة الواردة في الكتاب قول الشاعر⁽²⁹⁾ :

بينما نحن نرقبه أُنانا معلق وفضة و زناد راع

أراد " بين " و احتاج لإقامة الوزن، فأشبع الفتحة فنشأ عنها ألف مدّ.

و قد تزايد الألف للترنم و التنغيم في الشعر، نحو قول جرير:

أقلي اللوم عاذل و العتابا و قولي إن أصبت لقد أصابا

حيث مدّ الشاعر الألف في العتابا للترنم، و يروى البيت أيضا: العتابن بالنون.

و من إشباع الكسرة قول الفرزدق و هو أيضا من أبيات الكتاب⁽³⁰⁾:

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة نفي الدراهم تنقاد الصياريف

أراد الصياريف، فأشبع الكسرة فنشأ عنها ياء مدّ.

و من اشباع الضمة قول الشاعر⁽³¹⁾:

وأنني حوثما يشري الهوى بصري من حيثما سلكوا أنني فأنظور

أراد " أنظر " فأشبع الضمة فنشأ عنها واو مدّ.

و كانت النتيجة المتوصل إليها أنّ حروف المدّ هي نتاج مطل الحركات التي هي تابعة لها، من حيث طبيعة عنصر الحركة، و هذا ما عبر عنه ابن جني بقوله: منتشئة عنها و تابعة لها⁽³²⁾، فمعنى نشأ ينشأ، نما ينمو، و نقول عن الشيء أنّه يتبع شيئاً آخر إذا جاء بعده في الرتبة، و هكذا تكون الحركة في المرتبة الأولى و بالإشباع يتولد عنها حرف مدّ من جنسها.

لقد أسس ابن جني استدلاله على فكرة وحدة العنصر المكوّن لكلا النوعين من الحركة قصيرها و طويلها، مبيناً أنّ الإشباع ينمي هذه الحركة و يزيد في مظهرها إلى أن يبلغ بها مدى الحروف التي هي أبعاضها. أي حدّ الكمال حينما تتساوى مع الحرف التام، وهكذا يعلن عن النتيجة قائلاً: " قد ثبت بما وصفناه من حال هذه الأحرف أنّه توابع للحركات و منتشئة عنها، و أنّ الحركات أوائل لها، و أجزاء منها"⁽³³⁾، و هكذا فإنّ:

- الألف فتحة مشبعة.

- الياء الساكنة كسرة مشبعة.

- الواو الساكنة ضمة مشبعة.

و إشارة ابن جني توقفنا على إحساس القدامى بالفرق الواضح بين هذه الحركات الذي قيّد القول فيها علماء الدراسات الصوتية الحديثة، أنّه فرق في الكمية المنتجة، فقد سجل المحدثون على الأجهزة المتخصصة أنّ الفترة الزمنية لإنتاج الحركات القصيرة تساوي 300 دورة/ثانية، بينما تصل إلى 600 دورة / الثانية مع الحركات الطويلة (الألف و الواو و الياء المديتين)⁽³⁴⁾.

و ضمن علاقة الجزء بالكلّ، يواصل ابن جني مسعاه في التحقيق لنظريته "الحركات أبعاض حروف المد و اللين" نظرية ربّما تصوّر بعضهم منها أنّ هذه الحروف ماهي إلّا قطع و أجزاء من حركات التحمت و هي قابلة للتجزّء في كلّ حين، و الحقيقة أنّ حروف المد هي استمرار غير متقطع، و ليست وصلاً للأجزاء مستقلة قابلة للتلاحم، وتوخياً للدقة و الإقناع يقدم ابن جني استدلالات أخرى تزيدنا يقيناً على أنّ هذه الحروف أبعاض للحركات و منتشئة عنها فيقترح علينا أن نضع حروف المدّ الساكنة الثلاثة جانباً، و نأتي بحروف المعجم بدون استثناء سواكن كنّ(أو متحركات) فيمكن لنا الإتيان بعدها بأيّ الحركات، فتحة أو كسرة أو ضمة، ولا نشعر مع ذلك بصعوبة نطقية و هو ما عبر عنه بقوله: "نبوا في اللفظ ولا استكراها"⁽³⁵⁾ و هو أمر يختلف عن حالتي التعذّر أو الاستحالة، و الثقل أو الكراهية اللتان تواجههما هذه الأحرف الثلاثة التي يستثقل معها أمران هما: الكسرة قبل الواو الساكنة، والضمة قبل الياء الساكنة، إنّ الأمر يبدو ثقيلاً على النطق

و في الأسماع، للكلفة و المشقة التي تجدها أثناء إنتاج هذين الأمرين، و هو ما لا تجده مع نطق هذه الحروف مسبوقة بحركات تناسبها، و لهذا الثقل يلجأ النحاة إلى القلب و الإبدال⁽³⁶⁾.

بقيت قضية أخرى نستدل بها على أنّ الحركات أبعاض لحروف المد و اللين، وهي إجراء العرب الحرف مجرى الحركة، في قولهم: لم يخش، و لم يسع، و لم يرم، و لم يفز بحيث حذفت الألف و الياء و الواو للجزم مثلما تحذف له الحركة في نحو لم يقم، و لم يقعد، و كذلك نجدهم أجروا الحركة مجرى الحرف، منها إجازتهم الصرف في علم المؤنث الساكن الوسط نحو هند، الذي لك الحرية في صرفه أو منعه الصرف⁽³⁷⁾ و هكذا نرى كيف يتدرج ابن جني في عرض المسألة، بطرح كل الأسئلة، التي تخطر على بال الدارس، و الإجابة عنها في أسلوب مقنع عارضاً الأدلة و الحجج، محيطاً بالمسألة من كل جوانبها، فينتقل بين علوم العربية من دراسة الأصوات إلى الصرف للاستدلال لنظريته "الحركات أبعاض حروف المد و اللين" لتي لا يراود الشك أحداً في صحتها بعد هذا التدقيق في عرض العلل الواضحة .

و قد استنتج أحد الباحثين المحدثين من نص ابن جني هذا أنّه أي ابن جني اعترف و معه قدماء العربية بثلاث حركات فقط، وإن قيّد القول في عملية التطويل و التقصير لها، و هذا كما يراه الدكتور إبراهيم أنيس لا يغيّر من الحقيقة، و تلك الأصوات هي ما يسمونها الفتحة و الكسرة و الضمة⁽³⁸⁾ لا أنّنا لا نوافقه الرأي، فالاعتراف بعدد الحركات و التصريح بجده في

الخصائص أين يقول "إنه من المعروف أنّ عدد الحركات في العربية ثلاث، ضمة وكسرة و فتحة هذا ما في أيدي الناس في ظاهر الأمر و محصولها على الحقيقة ست" (39) .

وقياسا على قول القدامى أن الحركات أبعاض حروف المد و اللين و هي الحقيقة التي صرح بها ابن جني من المتقدمين و تابعه فيها من تأثر به، و من المتأخرين نذكر ابن الخشاب"ت 567 هـ و ذلك عند حديثه عن زيادة حروف المد و اللين... حيث قال:" و إنما كانت هذه الحروف أولى من غيرها بالزيادة لأنّ الكلم لا تكاد تخلو منها، أو من أبعاضها، و أبعاضها هي الفتحة و الكسرة و الضمة" (40)

و إن كان هؤلاء لم يبينوا على وجه الدقة مقدار هذا الجزء الذي تمثله الحركة القصيرة بالنسبة للحركة الطويلة، إلا أنّ المتصفح للمؤلفات يجد بعض المحاولات التي سعى فيها أصحابها لتقدير هذه الكمية، منهم الجابري(ت 746 هـ) في شرحه على الشافية الذي صرح بأنّ "الواو من جنس الضمة، وتقدر بضميتين" (41).

و قياسا على هذه الأقوال فإننا لا نرى بأسا من اعتبار تلك الحركات التي تظهر في الإمالة، و الاختلاس، و الإشمام أبعاضا للحركات القصيرة، مثلما بينا على وجه الدقة و التمثيل أنّ هذه الحركة القصيرة هي جزء من حرف المد التّام.

و هو رأينا الخاص الذي توصلنا إليه من خلال وجود علاقة تعديّة بين هذه الأصناف الثلاثة، و نختلف فيه الرأي الذي يذهب فيه صاحبه إلى القول:" و قد توهم القدماء و معهم ابن جني في بيان مقاييس هذه الحركة حين تحدثوا عن حالات الإمالة التي عدوها جزئيات فرعية لهذه الحركة القصيرة" (42).

و فيما يلي عرض مختصر لهذه الجزئيات الفرعية، والتي نخصّ بالدراسة منها: الإمالة، و الاختلاس والإشمام.

1/الإمالة: إنه من المعروف أنّ عدد الحركات في العربية ثلاث، ضمة و كسرة و فتحة هذا ما في أيدي الناس في ظاهر الأمر و محصولها على الحقيقة ست" (43)

إذ نجد بين كل حركتين حركة و بهذا يصبح عدد الحركات الممالة أربعة هي:

1-الفتحة الممالة كسرة.

2-الفتحة الممالة إلى ضمة.

3-الكسرة المشربة بضمة.

4-الضمة المشربة بكسرة.

"فالإمالة ظاهرة صوتية تلحق الحركات و ما يقابلها من حروف، و هي ضرب من ضروب الإدغام الأصغر الذي هو" تقريب الحرف من الحرف و إدناؤه منه من غير إدغام يكون هناك" (44). و الغرض منها إذن تقريب الصوت من الصوت، فتتحو بالفتحة نحو الكسرة، فتميل الألف التي بعدها نحو الياء لضرب من تجانس الصوت الذي يكون عبارة عن تقريب جزئي أو كلي مثل عالم و كتاب و سعى و استقصى، وسببها أنّ هذه الحروف تتبع الحركات قبلها، كما أنّ الحركة مشوبة غير مخلصة، فالحرف اللاحق بها أيضا في حكمها" (45).

و قد توصلنا في بحثنا (46) استنتاجا من الأمثلة التي قدمها ابن جني أنّ الإمالة لا تحدث للحركة إلا إذا كانت متبوعة بحرف مدّ (أي الحركة الممالة لا توجد مستقلة عن المدّ المنحو به هو أيضا) و هو ما استخلصناه من قوله:"و قد أمالوا أيضا هذه الفتحة و إن لم تكن بعدها ألف" (47).

2/الاختلاس: هو ظاهرة تصغير أو تقصير الحركات التي يمكن أن تمتد و تكون هذه الحركة القابلة للاختزال جزء من حرف المد و هو على درجات...

و قد مثل ابن جني لهذه الحركة المختلسة التي تقوم بإقصاء تتابع الحركات بدون أن تحدث انفصالا يرغم المتكلم على بذل جهد مضاعف من أجل نطق الحرفين المتمثلين أو القريبين من بعضهما بعضا، فقله:"يا أبانا مالك لا تامنا" (48) و غيره مما هو محرّك وإن كان مختلسا يدل على هذا قوله تعالى:"شهر رمضان" (49) عند من أخفى من القراء فلو كانت الراء الأولى ساكنة

و الهاء قبلها ساكنة لاجتماع ساكنان في الوصل ليس الأول منهما حرف لين و الثاني مدغم نحو دابة، و شابة⁽⁵⁰⁾.

3/الإشمام: يطلق الإشمام بصفة عامة على الكسرة المشربة بضمة، و هو يطلق أيضا على ياء المد الممالة نحو الضم في مثل الفعل الذي لم يسم فاعله في نحو: قيل، و بيع، و يمكن أن يفسره فيزيولوجيا بأنه "ضم الشفتين بعد تسكين الصوت الأخير في الوقف على المضموم و هو للعين دون الأذن"⁽⁵¹⁾ و يستدل ابن جني لهذه الظاهرة بقول الراجز:

متى أنام لا يؤرقني الكرى ليلا و لا أسمع أجراس المطي

إذ سمع من العرب من يشم لقاف الرفع، مع الاقتراب فيه إلى السكون و كأنه يقول: متى أنام لا يؤرقني: غير مؤرق، و من هذا البيت نستنتج مع ابن جني أن هذه دلالة قاطعة على أن حركة الإشمام لضعفها غير معتد بها، و الحرف الذي هي فيه ساكن أو كالساكن و أنها أقل في النسبة و الزنة من الحركة المخففة في همزة بين بين و غيرها.⁽⁵²⁾

يضاف إلى هذه الحركات القصيرة التي ذكرنا، نوع آخر يعرف تحت مصطلح الشّالة وهومه هو: صوت حركة قصيرة ينتج عادة بواسطة اللسان و في وضع وسط الفم الشفاه غير

مضمومة⁽⁵³⁾ shwa/ schwa

و يرى صاحب معجم اللسانيات الحديثة أن أقرب صوت لهذه الحركة هو ما يحدث عند وجود مقطع مكوّن من صامتتين و تعاقبين في النطق العامي العربي للعبارة: بنت جميلة.

و هو يرى أنها تحدث (الشّالة) في اللغة الإنجليزية كفونيم في الأوضاع بلا نبر نحو:

Writer و Upon و above

فالأصوات العربية الصائتة التي تحدثنا عنها يخرج هواؤها من الفم، و قد نجد نوعا خاصا يعمل التجويف الأنفي و الشفوي على إنتاجها، و ذلك "عندما يكون الحنك اللّين مرفوعا بحيث يمنع مرور الهواء المزفور من خلال التجويف الأنفي يخرج الهواء من الفم، و تكون الصوائت الصادرة عنه" فمية" مثل الصوائت التي عرضناها بالدراسة (الألف و الياء و الواو)، أما إذا كان الحنك اللّين منخفضا فإنّ الهواء المزفور يخرج عندئذ من التجويف الأنفي و من الفم معا، و تكون الصوائت الصادرة عنه أنفية مثل ʔ في الكلمة الفرنسية enfant⁽⁵⁴⁾

أنصاف الصوائت: قبل أن نختم هذا البحث بعرض النتائج المتوصل إليها نذكر بنوع خاص من الأصوات، فما درج علماء العربية عليه هو تقسيم الأصوات إلى صامتة

و صائتة، وهو تقسيم شائع في الدرس الحديث، إلا أن هناك مجموعة من الأصوات لا هي بالصامتة و لا بالصائتة، جعلها المحدثون ضمن مجموعة أطلقوا عليها مصطلح (أنصاف الصوائت)، أو أنصاف الصوامت، فهذا النوع "يشبه الصوامت في ضجيج الاحتكاك، الذي تحدثه أثناء إصدارها من جهة و تشبه المصوتات من حيث مخرجها من جهة أخرى"⁽⁵⁵⁾، و تعرف الفرنسية ثلاثة أصوات نصف صائتة w y j مقابل الصائتة u y i.⁽⁵⁶⁾

و الشائع لدى الدارسين أن علماء العربية لم يتفطنوا لمثل هذا الصنف من الأصوات إلا أن البحث قد أوصلنا إلى أن (ابن جني) قد بيّن أنه بالرغم من أن صوت النون ذا طبيعة صامتية، إلا أنه شبيه بأصوات المدّ، فالغنة التي نفي النون تضاهي المدّ في الأصوات المدية⁽⁵⁷⁾.

النتائج:

و من خلال هذه الدراسة نتوصل إلى النتائج الآتية:

1- أصوات المدّ في العربية ثلاثة طويلة هي الألف و الياء و الواو، تتفق مع الحركات الفتحة و الكسرة و الضمة في كل شيء مع فارق واحد ألا و هو القصر و الطول.

2- أن الأصوات المدية الطويلة عالية الوضوح السمعي بالنظر إلى القصيرة.

- 3-يوجد نوع من الأصوات هو شبيه بالمصوتات، منها في العربية الميم والنون، فالغنة في هذين الصوتين تضاهي المدّ في الأصوات المدية.
- 4-أنّ تلك الحركات التي تظهر في الإمالة، أو الاختلاس، أو الاشمام، أو التفخيم...هي أبعاد أو أجزاء من الحركات القصيرة.
- 5-أنّ عدد الحركات التي تحدث عنها اللغويون والنحاة العرب في محصولها ثلاثة طويلة و ثلاثة قصيرة(الموجودة خارج إطار التركيب)، و هي تفوق هذا العدد إذا انتقلنا إلى التركيب بحيث أحصى د. عبد القادر عبد الجليل في كتابه علم اللسانيات الحديثة 14⁽⁶⁰⁾ حركة موزعة على النحو:
- 9 حركات مدّ قصيرة
- 2 حركات مركبة ثنائية هي أي و أو.
- 3 حركات مدّ طويلة.
- لكنّا إذا اعتبرنا تلك الحركات التي تظهر مع الامالة و الاختلاس و الاشمام...تلك الحركات التي تحدّث عنها القراء الموجودة ضمن السياق فإنها تفوق هذا العدد بكثير، و قد أشار د. مكي درار بالأمس أنّ عدد الصوائت في العربية يبلغ 105 .
- المصادر و المراجع:
- 1-انظر: العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د.مهدي المخزومي، و د. ابراهيم السامرائي، المجلد الأول، دار و مكتبة الهلال، د.ط، 1967 ص 57
- 2-انظر : الأصوات اللغوية، د.عبد القادر عبد الجليل ص 198
- 3- خصائص حروف العربية و معانيها، د. حسن عباس ص 97
- 4- مخارج الحروف الرئيسية هي: الجوف و الحلق و اللسان و الشفتان و الخيشوم. المخارج الخاصة هي التي تتفرع منها المخارج الرئيسية. فالحلق مثلاً مخرج رئيسي يتفرع منه ثلاثة مخارج خاصة هي: أقصى الحلق:الهزمة و الهاء حنجران. وسط الحلق: الحاء و العين حلقيان. أدنى الحلق: الغين و الخاء لهويان.
- 5-انظر: سر صناعة الاعراب لابن جني ج 1
- 6-تيسير الرحمن: د. سعاد عبد الحميد، دار التقوى للنشر و التوزيع، ص 95
- 7-انظر: وصف اللغة العربية دلاليًا ص 253
- 8- المعجم الوسيط، مطابع الأوفست، ط1985، 3، جزءان، ج1ص175
- 9-الذي ركز على حركة الشفتين.
- 10- سر صناعة الإعراب لابن جني ج 1 ص 30
- 11-الدراسات الصوتية و اللهجية عند ابن جني، د. حسام الدين النعيمي ص 325
- 12-في أصوات العربية، د.مجدي ابراهيم ص 04
- 13- سر صناعة الإعراب لابن جني ج 1 ص 08
- 14-انظر مقدمة لدراسة علم اللغة، حلمي خليل ص 63.
- 15--تيسير الرحمن: د. سعاد عبد الحميد، ص 40.
- 16-اللهجات العربية و القراءات القرآنية، دراسة في البحر المحيط، د. محمد خان، دار الفجر للنشر و التوزيع، 2002، ص 86
- 17- سر صناعة الإعراب لابن جني
- 18- سر صناعة الإعراب لابن جني ج 1 ص 19 و الخصائص ج 2 ص 98.
- 19-انظر: سر صناعة الإعراب لابن جني ج 1 ص 20.
- 20-التفكير الصوتي في سر صناعة الإعراب، هنري فليش، ص 60
- 21-الخصائص، ابن جني، ج 3 ص 125.

- 22-م. السابق، ص 67
- 23- سر صناعة الاعراب لابن جني ج1ص.20
- 24- سر صناعة الاعراب لابن جني ج2، ص 719 ، و الخصائص ج 2 ، ص 352 .
- 25- الخصائص ج 2 ، ص 352 .
- 26- الخصائص ج 3، ص 125.
- 27- الخصائص ج 3 ، ص 121.
- 28- التفكير الصوتي ص 71.
- 29- الكتاب، لسيبويه ج 2 ص 87، و سر الصناعة ج 1، ص 27، و ج 2، ص 719.
- 30- الكتاب ج 1 ص 28.
- 31-م.ن، ج 1 ص 30، و الخصائص ج 2، ص 124.
- 32- سر الصناعة ص 26/ 27
- 33-م.ن
- 34- الأصوات اللغوية ص 198
- 35- السابق ص 21.
- 36 - م.ن ص 30 .
- 37-م.ن ص 30 .
- 38- انظر: الأصوات اللغوية ص 198.
- 39- الخصائص، ج 3 ص 120.
- 40- انظر: وصف اللغة العربية دلاليها ص 253.
- 41-م.ن ص 253.
- 42- الأصوات اللغوية ص 189.
- 43- الخصائص ج 3، ص 120.
- 44- الخصائص، ج 2، ص 141.
- 45- سر الصناعة ص 58.
- 46- انظر: سر صناعة الاعراب في ميزان الصوتيات الحديثة، رسالة ماجستير، اعداد فوزية سرير عبد الله ص 54 و ما بعدها.
- 47- سر الصناعة، ص 59.
- 48- سورة يوسف الآية 11.
- 49- سورة البقرة الآية 185.
- 50- سر الصناعة، ص 64.
- 51- في البحث الصوتي، خليل العطية ص 52.
- 52- السابق ص 67.
- 53- معجم اللسانيات الحديثة (انجليزي عربي)، د. سامي عياد حنا، ص 122.
- 54- علم الأصوات العام، بركة بسام، ص 82، و كذلك مبادئ الصوتيات، ألبير لندرسى، ص 84.
- 55- مبادئ الصوتيات، ص 84، و كذلك PP Elements de phonetique ; L.BONDY 52-53-54
- 56- انظر: المبادئ، ص 92.
- 57- انظر: سر الصناعة، ج 2، ص 719.
- 60- علم اللسانيات الحديثة، د. عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 2002، ص 321.

و قد قال ابن سينا عنها في مفاتيح العلوم (ص 31)، بعدما ذكر أنّ الواو هي ضمة مشبعة، والياء كسرة مشبعة، والألف فتحة مشبعة....." و على هذا لقياس الروم و الاشمام نسبتها إلى هذه الحركات كنسبة الحركات إلى حروف المد و اللين أعني الألف و الواو و الياء".